ورقة من تاريخ الاستشراق في المانيا :

اوجوست فيشر

(١٨٦٥ – ١٩٤٩)

بقلم انا ماري شيمل

أذكر بوضوح لقاءنا الأول بأوجوست فيشر، وكان ذلك فى أحد مؤتمرات المستشرقين الألمان أثناء الحرب العالمية الثانية سنة ١٩٤٢ على وجه التقريب ... شاهدناه وهو الذى عرفنا آسمه منذ بدأنا دروس اللغة العربية، وكان آنذلك شيخ قصير القامة، يقارب الثمانين من عمره، وإن لم تزل عيناه السوداوان تلمعان تحت جبينه العريض المتوج بالشعر الابيض كلما تحدث فروى من الكتب العربية ما روى أو نقد آثار زملائه – وكان شديد النقد لاذع اللسان ... أما نحن – «الأطفال فى عائلة المستشرقين» – فقد كنا نصغى الى حديثه وكأن على رؤوسنا الطير. فطالما تعلمنا من اللغة العربية وآدابها الكثير – بعد إتمامنا درس قواعد النحو الاولية – من الكتاب الذى نشره الأستاذ فيشر مجددا فيه ومنقحا لكتاب الأستاذ برونو وبذلك صار يدعى هذا المؤلف بالألمانية :

Brünnow-Fischer, Arabische Chrestomathie aus Prosaschriftstellern,

وعنوانه بالعربية :

«تسهيل التحصيل وهو كتاب مدرسى يتألف من نخب مختارة من الكتب العربية» ويعد هذا الكتاب من أهم مراجع دراسة اللغة العربية فى ألمانيا، فكم من الطلاب اشتغل بحكاياته واستفاد من قاموسه القيم منذ ان صدرت طبعته الأولى سنة ١٩١٣ !

لم نكتف فى ذلك الوقت بالتعجب لأبحاث هذا الشيخ الجليل المتبحر فى النحو العربى بل رأينا فيه حفيداً روحياً لمؤسس الاستشراق العلمى فى اوروبا ألا وهو سيلفستر ده ساسى الفرنسى المتوفى عام ١٨٣٨؛ وكان التلميذ الأشهر لهذا المستشرق الشهير الأستاذ هاينريش لبرخت فلايشر H. L. Fleischer (١٨٠١ الى سنة ١٨٨٨) الذى كان استاذ اللغات الشرقية فى جامعة لايبزيج وهو الذى جعل معهدها الشرقى مركزا لتدريس فقه اللغة العربية وبالخاصة النحو العربى، فقد اهتم بمسائل النحو المجرد وكان صاحب علم غزير باحثا فى المشاكل اللغوية والنحوية ولاشك انه استحق ان يدعوه زملائه أعلم المستشرقين وشيخهم فى الغرب كله بعد وفاة أستاذه الفرنسى حتى اننا نعثر على ثمار علمه فى التصحيحات العديدة التى أضافها الى قسم كبير من المصنفات فى مجال اللغة العربية وآدابها سواء أكانت قواميس ام كتب تأريخية، ولكنه مما يثير الأسف انه مع تأليفه الملاحظات القيمة والحواشى المفيدة التى لايحصيها العدد فهو لم يقم بجمع نتائج أبحاثه ومحصول أعمال سلفه العظيم فى كتاب شامل لفقه النحو واللغة العربية، ومع ذلك يعد فلايشر أستاذا لكبار المستشرقين الأوروبيين فى القرن التاسع عشر إذ كان يحضر دروسه الطلاب من الأقاليم السبعة وأصبح معهد لايبزيج مثالا نموذجيا لدرس العربية حسب النهج العلمى فى الغرب.

أما أستاذنا أوجوست فيشر فأخذ كثيراً من علمه عن تلميذ لفلايشر يدعى هاينريش توربكة H. Thorbecke الذى توفى فى سنة وفاة أستاذه (١٨٨٨) : وهكذا عين فيشر فيما بعد فى منصب فلايشر فى جامعة لايبزيج وصار أمينا على تراثه العلمى. والحق أن فيشر كان شبيها لأستاذه الكبير فى وجوه كثيرة، الأمر الذى نستدل عليه من المقال الذى كتبه عن فلايشر سنة ١٩٣٠، وكان هو الآخر ينهج الفلسفة الوضعية للغة فى ابحاثه العلمية ويطبق فى درسه طرق البحث التحليلية، فهو لم يقبل صحة افادة ما إلا بعد التثبت منها علميا، ولذا كان – رحمه الله – ناقدا لايرحم لكل من أهمل الأصول اللغوية والنحوية فى التراجم سواء عن العربية ام التركية إلى اللغات الغربية ولم يعرف التسامح مع من كان يقوم ببناء القصور العلمية فى الهواء دون ان يقيم اساسها النحوى على صورة لا غبار عليها ...

ليبزج ١٦/٣/١٩٤٥

حضرة المستشرقة العالمة الدكتورة ا. شيمل

عزيزتي وصلني خطابك الرقيق الذي تهنئينني فيه بعيد ميلادي الثمانين وتتمنين لي كل سعادة وخير، وقد أضفت اليه شعرا عربيا وزوقت صحيفتيه تزويقا فنيا جميلا، فتقبلته بيد السرور وقرأته بلسان الفرح وأعيته بقلب مملوء بحبور، وإني لأشكرك على ما أبديته نحوي من العطف وما تجلت عنه عبارتك اللطيفة من حسن الظن بي.

ورجائي عدم المؤاخذة في تأخيري الشكر حيث كانت لدي موانع قهرية منها تخرب بعض منزلي بقنبلة منفجرة أميركانية

صحيفة من مكتوب لأوجوست فيشر بعث به الى مؤلفة هذا المقال فى شهر شباط ١٩٤٥.

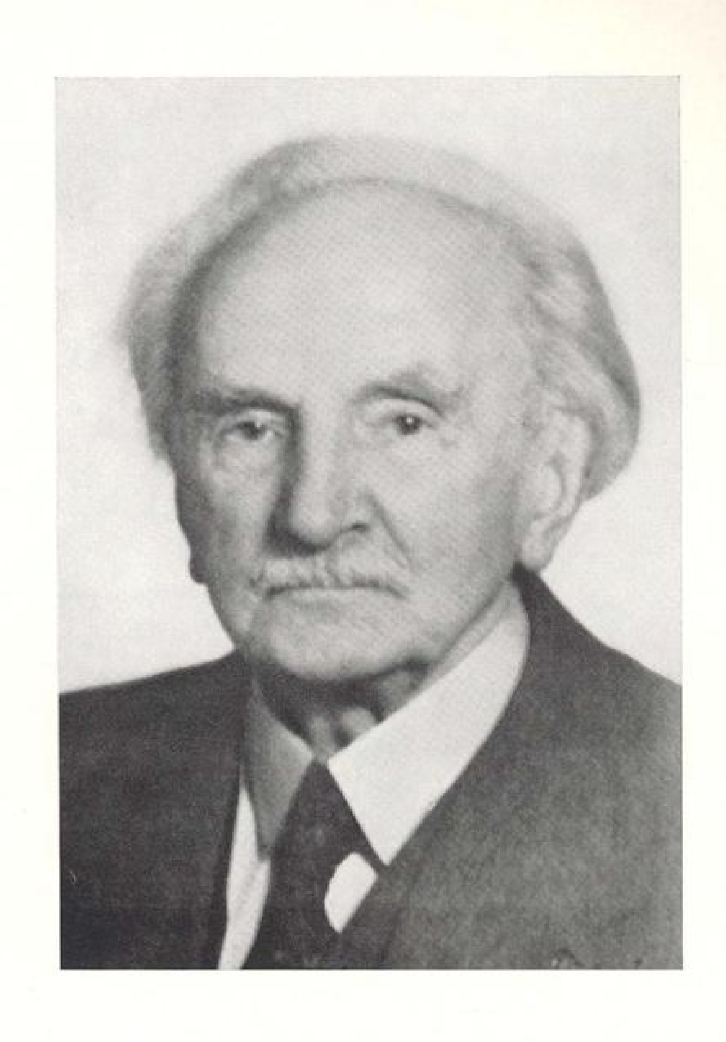
ولد أوجوست فيشر سنة ١٨٦٥، ودرس اللغات الشرقية قاصدا فى أول الأمر الاشتغال بالتوراة واللغات السامية؛ ثم ركز همته على درس العربية والتركية، واقام فى فترة دارسته لمدة فصل دراسى واحد فى جامعة ماربورج على نهر لان ليستفيد هناك من دروس ولهاوزن Wellhausen المؤرخ العظيم (١٨٤٤ الى ١٩١٨) الذى كان قد اشتهر أولا بنقده لمتون التوراة من الوجهة التأريخية (فصار لذلك أحد مؤسسى علم اللاهوت العصرى فى الغرب)؛ ثم نشر بعد ذلك ابحاثه فى مجال تاريخ العرب فى عصر الجاهلية وفى عهد الرسول وعهد بنى أمية، وكان هو العالم الواسع الصيت العميق البحث الذى لم تزل كتبه عن خروج الخوارج وعن دولة بنى أمية مفيدة للغاية حتى يومنا هذا، خاصة لأنه سلك فيها طريقة جديدة فى البحث عن التاريخ الاسلامى وكانت له موهبة خاصة لفهم الروابط الداخلية بين الحوادث التاريخية وايضاح الوقائع وتمثيل خصوصيات الأشخاص المشتركين فى وقائع الدهور.

لذلك قصد فيشر فى شبابه الى درس العربية على يدى ولهاوزن. وكتب بعد ذلك بستين سنة فى بطاقة بعث بها فى يناير عام ١٩٤٦ الى مؤلفة هذا المقال وهى اذ ذاك مدرسة فى جامعة ماربورج:

«درست فصلا دراسيا واحداً فى مدينة ماربورج على يدى ولهاوزن الذى صرفنى عنه اذ لم استطع ان استزيد منه علما، ولانه كان بصدد بناء دارا لنفسه مما عاقه عن إعداد الدروس لى (فقدكنت تلميذه الوحيد فى اللغة العربية). وأحب مدينة ماربورج منذ ذلك زمان»...

ثم حصل فيشر على درجة الدكتوراه من جامعة هاله سنة ١٨٨٩، وكان موضوع أطروحته مأخوذاً عن «علم الرجال» وقد برهن فى هذه الاطروحة على غزارة علمه فى اللغة العربية، وعلى ان اطلاعه على المصادر التاريخية القديمة يستحق كل تقدير وثناء، ونشاهد حتى فى باكورة تآليفه البحث المنقب عن الحقيقة العلمية المطلقة، فهو لم يدع تعبرا غريبا ولا كلمة مبهمة الا وسعى الى فهمها وايضاحها بكل اجتهاد، مستعينا بكافة المصادر اللغوية والتاريخية.

كان هذا هو اسلوبه العلمى، فهو لو أراد ان يحقق معنى جملة واحدة او ينقب عن تعبر نادر استعان بكل المتون والشواهد التى كانت لديه او كانت محفوظة فى متاحف الغرب والشرق (ولا اظن انه يوجد من متن عربى قديم إلا وعرفه معرفة خبير!) ولذلك الوازع الملح لبلوغ الحقيقة العلمية اشتهر فيشر فيما بعد كناقد لا تغمض عيناه عن هفوات



صورة الأستاذ اوجوست فيشر فى أواخر أيامه.
نشكر الأستاذ الدكتور يوهان فوك الذى انعم علينا بهذا التصوير.

زملائه اذا اخطأوا، وقال فيه الأستاذ يوهان فوك J. Fück فى مقالة تذكارية أجاد فيها وصفه:

«لم يدّع بأى حال أنه معصوم عن الخطأ بل كان بالاحرى يعلم تلامذته أن عليهم قبل البدء بالبحوث ادراك جهلهم الكلى، ثم كان يرشدهم الى الطريق محاولا أن يبين لهم ان أساس كل بحث فى جميع فروع العلوم الاستشراقية لايكون الا بمعرفة المسائل المطلوبة معرفة كاملة من جهة الصرف والنحو وبمساعدة القاموس والمصطلحات اللغوية».

بعد ان أتم فيشر درسه فى مدينة هاله عين مدرسا للغة العربية فى معهد اللغات الشرقية الجديد فى برلين سنة ١٨٩٦، وجلبت اهتمامه هناك اللهجة المغربية التى درسها أولا فى برلين ثم فى المغرب نفسه، ونشر فيما بعد مجموعة من الاشعار المغربية التى حصل عليها اثناء إقامته فى المغرب فى كتاب عنوانه Das Liederbuch eines marokkanischen Sängers (اناشيد مغن مغربى، لايبزيج ١٩١٨) ذلك أنه كان على اقتناع كامل بأن درس اللهجات العربية العصرية من اهم الواجبات على كل من قصد تعلم العربية الفصحى وأراد ادراك خصائصها والتعمق فى تاريخ تطورها منذ قديم الزمان الى ايامنا هذه. ولذلك كرس جانبا كبيرا من ابحاثه لتحقيق مسائل لغوية تتعلق باللهجات العصرية (فلنذكر انه توجد هناك مثلا مقالة ذات اهمية له عن اسماء القط فى اللهجة المغربية ...) واستحث تلامذته الى تدوين ملاحظاتهم فى مختلف الاقطار العربية التى يزورونها.

بعد ان عاد فيشر من المغرب عينته الحكومة أستاذا لكرسى اللغات الشرقية فى جامعة لايبزيج سنة ١٩٠٠ ولم يتخل عن هذا المنصب العلمى الى ان توفى الى رحمة الله سنة ١٩٤٩، وبفضله اصبحت مدينة لايبزيج مرة أخرى مركزا لدراسة العربية فى المانيا على نحو ما كانت عليه فى عهد الأستاذ فلايشر؛ وكان فيشر حاضرا لمعاونة زملائه وتلامذته اذا طلبوا اليه مددا فى مسائل الصرف والنحو واللغة فاستفادوا منه، لأنه كان يعتبر النحو العربى قلب العلوم الاستشراقية، ولذلك نشر كثيرا من الملاحظات القيمة والمقالات الغنية التفرعات فى هذا المضمار، ومن ذلك ما ألفه حول مسألة النطق الصحيح باسم الشاعر امرؤ القيس، او عن مختلف صيغ القسم كما انه عالج مشاكل الترجمة فى إجابته على مثل هذه الأسئلة: كيف نحصل على ترجمة صحيحة لبيت من ابيات الشاعر فلان بن فلان، او: ماهو المعنى الحقيقى المقصود فى سورة تبت، وهو قد أظهر فى هذه المقالات على

79

أفخر أثر نواسر معلاها

أنا نبغيك نزهق بصاحبي نغات الحلو والحلال

وأعرفت لحسان بين جلاها

وما خشيت من لعقوبا [illegible] اغطس نعم اشتغال

[illegible] العشق [illegible] وحد ولاها

سع جبت شقا نكرت لحسان ما نشبه ليه بدال

وامقع النفاع للغلاء ونغلاها

وما للغفار من يعطك كل ما تبلت ليه بقبال

بشراقه

الكاو كي بجمار نار لغرام ومما جرا لي لا خبر

ولكن [illegible] نار لغرامي التعب بلجوف

يا لاهل صلاح الغرق حرمن المراهق كيف

[illegible] قلب الدين [illegible]

Das Liederbuch eines marokkanischen Sängers. صحيفة من كتاب اناشيد مغن مغربي، نشر سنة ١٩١٨.

esels nicht in ängstliches Zittern gerieten[1]). — Und sei mir gnädig, o Gott, wenn ich sündige! — Und gar manche eine Wange[2]) zierende Rose, deren Besitzer hört und sieht, tränkt früh und spät der Tau der Tränen, ohne daß sie ein Bewußtsein davon hat. — Und von manch anderer, auf einem Strauche blühender Rose zerstreuen sich die Blätter, weil sie welkt und durstet, während doch das Wasser in der Wurzel ihres Stockes rinnt. — Und Gott in seinem Edelmut ist huldvoll gegen den, der ihm dient, und so führt dieser ein angenehmes Leben. — Und nähren mögen die alten Geier mit dem Lobe ihres Herrn ihre Jungen[3])! **Endreim.**"

S. ٤٧٦, 11 ff.:

رجع: وإن كانت صُفْرةُ البَهارِ من خَوْفِ المَوْتِ فهِيَ تَشْعُرُ إذا دَنَا مِنْها الجانُونَ؛ وإن كانت صُفْرتُها غَرِيزةً فلا بالةَ لها أفتَكَ الجانِي بأُخْتِها أمْ بالشِّيحة؛ وعَظُمَ عَفْوُ اللهِ خَطَرًا. وَلَوْ ظَنَّ العِرْباءُ أنَّ أمَّ حُبَيْنٍ تَحْمِلُه على غُشْوةٍ لَطَلَّقَها بغَيْرِ استِثْناءٍ، ولاتَّخَذَ بَدَلًا

1) Cf. Mutanabbī, ed. DIETERICI, S. ٧٥, ult.:

مَوْتٌ فَرِيصُ المَوْتِ مِنْه يُرْعَدُ

(DIET. falsch يَرْعَدُ), mit dem Kommentar: وهو مَوْتٌ لأعْدائه فيَخافه المَوْتُ وتَرتعد فرائصُه وهى لحمات عند الكتف تضطرب عند الخَوْف (ungefähr ebenso 'Ukbarī, aber mit — noch schlechterem — تُرْعِدُ statt يُرْعَدُ); Ḥarīrī, *Maqāmāt*, ٣٦٦, 1: وأُرْعِدَتْ فَرائصِى ارتياعًا u. a.

2) وَجَنات steht hier von der Wange einer Person. So auch, und zwar gleichfalls in Verbindung mit وَرْد, Yāqūt, a. a. O., I, ٦٥٣, 21:

الخَمْرُ فى لَحَظاتِها والوَرْدُ فى ✱ وَجَناتِها والكَشْحُ غَيْرُ مُفاضِ

und Maqqarī, I, ٨٦٠, 12:

خافَ اقتِطافَ الوَرْدِ من وَجَناتِها ✱ فأدارَ من آسٍ سِياجَ عِذارِ

3) قَشاعِم von Geiern auch *Naqā'iḍ Ğarīr wa-l-Farazdaq* ٣٨٩, 3; *Bibl. arab.-sic.*, ed. AMARI, ٥٦٤, 2 u. ö.

صحيفة من الرسالة العلمية التى الفها اوجوست فيشر حول «كتاب الفصول والغايات لأبي العلاء المعرى»، ويلاحظ فيها الاسلوب الذى كان يتبعه فيشر فى معالجة موضوعاته العلمية.

صغر حجمها علما موسوعيا بالتقاليد العربية وتاريخ التفسير والآداب وآثار النحويين ... ومن بين الموضوعات التى عنى فيشر ببحثها وضع اللهجات المختلفة فى جزيرة العرب فى عهد النبي والخلفاء الراشدين كما أنه لم يتوان عن جلب اهتمام المستشرقين الى تقدير مدى أهمية الأشعار الجاهلية فى ايضاح بعض التعابير الصعبة فى القرآن الكريم. وقد رأى فيشر فى الآداب العربية القديمة اربعة مجالات لغوية تختلف بعضها عن بعض من الوجه النحوى واللغوى ومن جانب الاسلوب والمضمون، ألا وهى الشعر الجاهلى، واسلوب القرآن، والنثر فى الصورة التى نجدها فى كتب السير و المغازى، وأخيرا الحديث النبوى. إلا ان هذا التدقيق النحوى والتحقيق اللغوى الذى نهجه فيشر لم يكن هدفا فى حد ذاته كما ظنه الكثيرون من زملائه وإنما كان وسيلة لفهم الآداب العربية او — إن شئت — الوسيلة الوحيدة الموثوق بها. ومع ان المستشرقين كانوا يخشون لاذع نقده لهم وان بعضهم لم يحبوا طريقته هذه فى تقطيع كل كلمة وتشريح كل عبارة، فكان فيشر نفسه قد اعترف «ان الآداب فى نظرى لهى جوهر التآليف الشرقية كلها وصميمها». ومع ميله للاداب لم يروم الفقه الاسلامى ولا آثار اهل الكلام، وفى صفته الموضوعية لم يتمكن من الالتفات الى التصوف الا من الوجهة اللغوية، ومع ذلك فقد كان يرجح عبارات المتصوفين على اقوال اهل الكلام، وقد وجه الأستاذ فيشر شكره الى كاتبة هذا المقال فى احد الايام (وكان آنذاك فى الرابعة والثمانين من عمره) على ترجمتها لبعض الأشعار الصوفية قائلا:

«ان للتصوف اخطار ومزالق، ولكنه بلا شك اعظم جاذبية من الكلام والعقائد الاسلامية الشرعية فهو يسلب العقول اكثر منها، ومن المعتقد انه من حظ التصوف الفارسى انه سوف يمن على العالم بالكثير من الهبات».

وكان الأستاذ فيشر على الرغم من تقديره للأدب والتصوف الى حد ما لايستحسن آثار بعض زملائه الذين صنفوا كتبا ورسائل فى مواضيع تاريخية وادبية ودينية بدون ان يعتمدوا على أسس نحوية قوية او ان يحققوا معانى كل من التعابير تحقيقا علميا ... ومما يدعو للأسف ان اوجوست فيشر — وهو يشبه فى ذلك أستاذه فلايشر — لم يقم بتأليف كتاب فى النحو العربى رغم أنه قد وقف حياته على بحث

هذا الموضوع ، ذلك أن ملاحظاته وحواشيه مشتتة فى مختلف المراجع والمصنفات ... كما نأسف أسفا أشد من ذلك إذ لم يأذن له القضاء بإتمام قاموسه الكبير الذى انكب على تجميع شواهده أكثر من اربعين سنة ، إذ كان قد اعلن مشروعه هذا فى عام ١٩٠٧ هادفا الى اصدار معجم موسوعى يستمد عناصره من المتون العربية الكلاسيكية الممتدة حتى القرن الثالث للهجرة وبحيث لايستند الى الكلمات المسرودة فى القواميس العربية القديمة والتى يضمها قاموس «لين» Lane وغيره. وقد بقى هذا المعجم الشامل نصب عينى الأستاذ فيشر حتى آخر لحظات حياته ، وكانت قد دعته الحكومة المصرية الى القاهرة ليعمل هناك بضعة أشهر من كل سنة فى الإعداد لقاموسه المذكور ، وهكذا أخذ معه ما كان قد جمعه من الكلمات والتعابير وحفظها فى مصر منذ سنة ١٩٣٦ ، ولما ودع القاهرة للمرة الأخيرة عام ١٩٣٩ ترك مجموعاته فى عهدة «مجمع فؤاد الأول — سابقا — للغة العربية» الذى كان يتمتع بعضويته منذ سنوات ، ولم يأته خبر من مصر اثناء الحرب العالمية الثانية ولا بعدها حتى ظن أن مجموعاته كلها قد ضاعت فى تلك الحقبة المبلبلة وقد كتب الينا «إنه من الطبيعى ان أتألم غاية الألم لأن قاموسى قد راح ضحية الحرب ...» ولكنه أخطأ فى ظنه ، وليته تمكن قبل وفاته من السفر الى مصر على النحو الذى تمناه ! فلا زالت هناك بطاقاته الستة والثلاثون ألفا التى كانت محفوظة فى المجمع المذكور فى القاهرة ... كما قام مجمع اللغة العربية بالقاهرة بنشر نموذج لمتن قاموس فيشر بعد وفاته مع مقدمة المؤلف المكتوبة باللغة العربية (فى عام ١٩٥٠) ، وكان عنوان هذا المصنف «معجم تاريخى للغة الآداب العربية حتى نهاية القرن الثالث الهجرى». وذكر فيشر فى مقدمته التى دونها قبيل الحرب طريقته فى جمع الشواهد من المتون فهو لم يستغن تماما عن القواميس الشهيرة المعروفة من قبل. وهو قد وجه شكره الى «القراء والنساخين» المصريين الذين عاونوه فى مطالعة المتون الهامة واستنساخ الكلمات والتعابير. ولمزيد الأسى لم تمهله المنية لاتمام هذا المصنف العظيم أو استكمال مواده وجمعها فى معجم يستفيد منه اهل العلم فى الشرق والغرب ..

والى جانب شهرة الاستاذ فيشر كمؤلف للقواعد اللغوية فى مجال اللغة العربية وكناقد صارم فى مضمار فقه اللغة لا يصح ان ننسى أعماله الهامة حول الآداب التركية العصرية. فقد كان يجيد التركية حيث نشر ترجمات لاشعار محمد امين وكذلك ، فى سنة ١٩٢٢ ، كتيبا يحمل عنوانه العبارة التالية :

Aus der religiösen Reformbewegung in der Türkei
(عن حركة الاصلاح الدينى فى تركيا).

ترجم فيه رسالة للوزير الاعظم سعيد حليم باشا (١٨٦٣ الى ١٩٢١) الذى كان قد نشرها هذا المؤلف عام ١٩١٨ عند انهيار الدولة العثمانية ، وتفصح هذه الرسالة المعنونة «اسلاملاشمق» عن امكانيات تجديد الافكار الاسلامية واصلاح حياة المسلمين الروحانية ، كما ترجم فيشر فى الكتاب ذاته بعض الاشعار لضياء كوك الب ، عالم الاجتماعيات وواعظ النهضة التركية ، وكذلك بعض الاشعار الاخرى لعبد الحق حامد الذى اعتبره اهم شاعر تركى معاصر. وقال العلامة فيشر فى مقدمته لهذا الكتاب انه يتفق ورأى المستشرق الهولاندى المشهور «سنوك هوركرونيه» الذى اعتبر مسألة الاسلام من المسائل المهمة فى عصرنا هذا وانها جديرة باهتمام العلماء وداعية لاجتهادهم. وأضاف فيشر الى هذه الكلمات انه من الواجب — فى رأيه — على كل مؤرخ ومستشرق ان يهتم بالحالة الراهنة فى العالم الاسلامى وان المهمة السامية التى يجب على المستشرقين الاضطلاع بها ، هى تعريف الجمهور بالتيارات الأدبية الجديدة فى أصح صورة ممكنة ، اى فى ترجمتها العلمية. لذلك قام فيشر بترجمة الاعمال التى تنطوى تحت هذه التيارات الادبية الدينية التى انبعثت فى تركيا. ومن العجيب ان كتابه هذا قد صار منبع الالهام لواحد من كبار المجددين فى عالم الاسلام الا وهو محمد اقبال الباكستانى الذى يتبادل الرسائل مع الاستاذ فيشر حتى أنه أوصى صديقا تركيا له (وهو المؤرخ خليل خالد ، احد اساتذة معهد اللاهوت القديم فى جامعة استانبول) ان يتصل بهذا المستشرق الاوروبى الجليل. وقد ترجم محمد اقبال نفسه الكثير من الافكار التى اوردها فيشر فى تراجمه المذكورة واقتبسها فى كتابه «تجديد الفكر الدينى فى الاسلام» دون ذكر اسم المستشرق الالمانى أو عنوان كتابه. وما أعظم تاثير مؤلف فيشر — آنف الذكر — على تعليقات محمد اقبال فى كل ما كتبه حول طرق التجديد الدينى والاصلاح الروحانى فى تركيا بعد الحرب العالمية الاولى ! والحق يقال ان اوجوست فيشر قد لعب بواسطة هذا الكتيب دورا لايستهان به فى تجديد الفكر الدينى فى الهند والباكستان !

اما نحن فيروقنا فى كتاب فيشر هذا — جانبا من تراجمه العلمية — ألا وهو أنسه بالمصادر الصوفية وتاريخ التصوف. ولم يزل الأستاذ يشتغل بالآداب التركية حتى أثناء الحرب العالمية الثانية عندما نشر فى مجلة جمعية المستشرقين الالمان ترجمة للاشعار الاربعة الحسنى لعبد الحق حامد الشاعر

التركى المتوفى سنة ١٩٣٧، وفى الفترة نفسهـا قام فضلا عن ذلك باصدار ترجمة لمسرحية ألفها هذا الشاعر تحت عنوان «روحلر» (اى: الاشباح)

وبجدر بالذكر ان الاستاذ فيشر على رغم شيخوخته فى ذلك الوقت وما اصابه من بلايا اثناء الحرب قد داوم على اشتغاله باصعب المتون العربية، اذ نشر عام ١٩٤٢ رسالة حول «كتاب الفصول والغايات» لأبى العلاء المعرى، ومن المعلوم ان هذا المؤلف نادر جدا لصعوبة أسلوبه ولأن بعض النقاد قد اعتبروه «معارضة للقرآن الكريم». وقد أثبت فيشر خطأ هؤلاء النقاد من كلمات ابى العلاء نفسه عندما تكلم فى «رسالة الغفران» عن ابن الراوندى وكتابه «الدامغ» قائلا:

«واجمع ملحد ومهتد — وناكب عن الحجة ومقتد — ان هذا الكتاب الذى جاء به محمد صلى الله عليه كتاب بهر بالاعجاز ولقى عدوه بالارجاز، ما حذى على مثال — ولا اشبه غريب الامثال، ماهو من القصيد الموزون — ولا الرجز من سهل وحزون — ولا شاكل خطابة العرب — ولا سجع للهنة ذوى الأرب، — وجاء كالشمس اللائحة — نوراً للمسرة والبائحة ...»

وقد بين فيشر ان رأى المستشرقين الاوروبيين فى معارضة ابى العلاء المعرى للقرآن لا أساس له من الصحة وبرهن كذلك على انه لم يراحدهم الكتاب نفسه وانما اقتبسوا ما وجدوه فى آثار العرب الذين لم يستحسنوا افكار المعرى، ومنهم ابن الجوزى وياقوت الرومى والذهبى، مع ان اكثر هؤلاء المؤلفين لم يشاهدوا مخطوطة لهذا الكتاب المختلف عليه.

وقد فسر الأستاذ فيشر الجزء المنشور فى مصر سنة ١٩٣٨ وحقق أسلوبه وتحقق من قوافيه ودقق مناسبة الغايات والأقسام المسجعة، وعلى كل من اراد التعمق فى افكار أبى العلاء وفن نظمه ان يطلع على كتاب فيشر هذا بكل دقة كى يتعلم منه طرز البحث العلمى الأصيل.

وفى أواخر الحرب وبعدها اصاب فيشر من المصائب ما اصابه لما ضاع قسما كبيرا من كتبه وخربت كذلك مكتبة الجامعة فى مدينة لايبزيج وانهدم نصف بيته بالقنابل، ومع ذلك لم يستسلم لليأس بل لبث يكتب ويقرأ فيما تبقى له من الكتب حتى فى تلك الأيام المفجعة وقد كتب يقول فى أول رسالة بعث بها الينا بعد الحرب:

«لم نصب فى العام الماضى الا بالكارثة تلو الاخرى ... ولكن لافائدة من اطالة الكلام عن ذلك بل من المهم الآن ان نحافظ على بقائنا بمقاومة جميع القوى ....»

وهو يومئ بالتعبير الاخير الى بيت لشاعرنا جوتيه انه من يقاوم الرزايا القوى والبلايا يستجلب المعونة الالهية:

Allen Gewalten zum Trotz sich erhalten
Rufet die Arme der Götter herbei . . .

ولما توفى خليفته فى معهد لايبزيج — البروفسور اريش برونليش Bräunlich — فى شهر آب ١٩٤٥ بينما كان أسيراً فى الحرب، قام شيخنا الجليل بالتدريس على الرغم من تقدم سنه ... وكان قد حل مكان الأستاذ برونليش فى زمان الحرب؛ ثم منعته الحكومة عن التدريس (ووقعت على ذلك المرسوم المدينة لايبزيج فى منطقة الاحتلال الروسى آنذاك) ولكنه داوم على التدريس الخاص مع انه قد فاق الثمانين من عمره، حيث كتب يقول فى سنة ١٩٤٨: «لا يزال عندى بضعة طلاب أقوم بتدريسهم رحمة بهم اذ لايوجد هناك معلم للعربية ...»

ومما يثير الحيرة ان اوجوست فيشر لم تأخذه كيلولة ولاتعب رغم ما مر به من ظروف عصيبة، بل أنه ألف من المقالات والأبحاث الكثير حيث نجد من بينها رسالة يعالج فيها صيغ القسم فى العربية، مثل «آلله، ها اللهذا، لاه ابوك، تعمر، عمرتك الله» وما الى ذلك.

وفى هذا العام — ١٩٤٨ — جاءته دعوة من جامعة ماربورج وبذلنا مساعينا كى نجلبه الى مناطق المانيا الغربية ليتمكن من هنا من السفر الى الديار المصرية، وكان يرجو ان يلقى فى معهد الاستشراق بجامعة ماربورج «بعض المحاضرات ريثما تدعونى الهاوية (كذا فى الاصل الالمانى!) بلطف، اكثر او اقل، للولوج اليها...» إلا أن امنيته لم تتحقق، وهكذا رحل الى السماء فى ١٤ شباط ١٩٤٩.
وكان ذلك اليوم الذى صعدت فيه روحه الى باريها يوافق يوم ميلاده الذى اتم فيه الاربعة والثمانين من عمره.
نذكره — وستذكره الاجيال القادمة — كلما قرأنا وقرأت كتابه الدراسى الفريد: Arabische Chrestomathie، وكلما استفدنا فى استيضاح المتون العربية العسرة من ملاحظاته وتراجمه، عملا بقول الشاعر:

ما الفخر الا لأهل العلم انهم
على الهدى لمن استهدى ادلاء
وقدر كل امرئ ما كان يحسنه
والجاهلون لأهل العلم اعداء
ففز بعلم تعش حيا به أبدا
الناس موتى و أهل العلم أحياء